أساليب الخطاب الإقناعي عند الأمير عبد القادر الجزائري من خلال كتابه"المِقْراض الحادّ"

يوسف ولد النبية
جامعة معسكر، youcefouldennebia@yahoo.fr
تاريخ الإرسال: 2017/05/28؛ تاريخ القبول: 2018/06/01

Abstract: In this paper, we have discussed the different styles of the persuasive speech of El Emir Abdelkader through his book "Almiqradh El had". the aim of this discourse is to correct the comprehension of the other who is different in religion (Non- Milli) ,and making him taking a positive attitude toward the islamic legislations concerning the issue of " the obligation of loyalty and the prevention of treachery" .El Amir in this discourse, has used different styles from Quaran and Sunnah, and other reasonable, sensual, and rhetoric techniques.

We have started first by defining the persuasive speech that depends on the demonstrative means (reasonable, from Quran and Sunnah, sensual) and the rhetoric means. Then we have presented the styles of the persuasive speech used by El Amir Abdelkader when talking to the other Non-Muslim. the reasonable means can be rejecting the wrong deduction (QiyasFassid) that the non-Muslim believes in, or depending on the jurisprudential deduction. Whether the techniques from Quran and Sunnah (Naqliya) contain such credible textual proofs and evidences that oblige the fulfillment of the covenant, and prevent the treachery from Quran , Hadith , the Bible, and Arab talks. The sensual styles which contain the evidences perceived by the five senses. Finally the rhetoric styles such as similes, division and emphasizing which aim at influencing the receptor and revealing the abstract meanings in artistic masked images.

المنارة للاستشارات

Keywords: persuasive speech; reasonable;Naqliyah (from Quaran and Sunnah); sensual; and rhetorical styles; demonstration means; the other non-muslim .

الملخص:تطرقنا في هذه الورقة البحثية إلى الحديث عن أساليب الخطاب الإقناعي عند الأمير عبد القادر من خلال كتابه "المِقراض الحادّ"، وقد كانت الغاية من هذا الخطاب تصحيح فهم الآخر غير الملّي، وجعله يتخذ موقفا إيجابيا مما شرعه الإسلام في مسألة "وجوب الوفاء والأمر به، وترك الغدر والنهي عنه". وقد اعتمد الأمير في خطابه الإقناعي هذا على أساليب مختلفة؛ عقلية، ونقلية، وحسية، وبلاغية.

وقد افتتحنا هذه الورقة بالحديث عن مفهوم الخطاب الإقناعي، الذي يقوم على الوسائل البرهانية (عقلية، ونقلية، وحسية) والوسائل البلاغية. ثم انتقلنا إلى عرض أساليب الخطاب الإقناعي التي اعتمدها الأمير عبد القادر في مخاطبته للآخر غير الملّي. فأما الأساليب العقلية فمنها ردّ الأقيسة الفاسدة التي يعتقدها غير المسلم، ومنها الاعتماد على القياس الأصولي. وأما الأساليب النقلية فتمثلت في سوق الأدلة النقلية الموثوقة التي توجب الوفاء بالعهد، وتنهى عن الغدر كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وأحكام الفقه، ونصوص من الكتاب المقدس، وكلام العرب. وأما الأساليب الحسية فتضمنت الأدلة المدركة بالحواس الخمس. وأما الأساليب البلاغية فمنها التشبيه والقصر والتقسيم والمقابلة، وكان الغرض منها التأثير في المتلقي، وتجلية المعاني المجرّدة في صور فنية مقنعة.

الكلمات المفتاحية:الخطاب الإقناعي؛ الأساليب العقلية؛ والنقلية؛ والحسية؛والبلاغية؛الوسائل البرهانية؛ الآخر غير الملّي.

المنارة للاستشارات

مقدمة:

يُعدّ كتاب "المِقراضُ الحادّ لقطع لسان مُنتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد" أولَّ مؤلفات الأمير عبد القادر الجزائري (ت 1300هـ/ 1883م) النثرية، الذي ألّفه بعد نفيه من الجزائر إلى سجن أمبواز(Amboise) بفرنسا سنة 1264هـ/ 1847م. (الأمير محمد بن الأمير عبد القادر، 1903م: 67)

وقد أفصح الأمير عن سبب تأليف هذا الكتاب قائلا: "وبعد؛ فإنّي في أيّام ضيافتنا عند... الدولة الفرنسوية تكلّم بعض القسيسين في دين الإسلام وقال: إنّ الغدر وعدم الوفاء فيه غير قبيح ولا منهي عنه. فلمّا سمع كلامَه بعضُ أعيانهم ممّن له ميل إلى إظهار الحق بالعموم وفي هذا بالخصوص طلب مني أن أضع رسالة تتضمن بيان شرع الإسلام بما يُكذّب قول القائل، فاعتذرت إليه. ولّما طالت ضيافتنا بسبب اشتغال الدولة عن إرسالنا إلى محل قصدنا أعاد عليّ الطلب... فأسعفتُ الطالب المذكور معترفا وأجبته بأني لا أصلح أن أكون تلميذا لعلماء الإسلام فضلا عن أكون من جملتهم". (الأمير عبد القادر، 1989م: 7)، ثم انتهى الأمر بالأمير إلى تأليف هذه الرسالة-التي تقع في مائتين وأربع وخمسين صفحة- بعد إلحاح ذلك الطالب.

وتتألف هذه الرسالة من مقدمة وثلاثة أبواب؛ أما المقدمة فتضمّنت الكلام على العقل وما يتعلق به. وأما الباب الأول فتحدّث الأمير فيه عن إثبات الألوهية وبيان الطريق إلى معرفة الله تعالى. وأما الباب الثاني فتناول فيه النبوة والرسالة. وأما الباب الثالث فهو موضوع

المنارة للاستشارات

الرسالة، وفيه بيان ما ورد في الشرع من وجوب الوفاء والأمر به، وترك الغدر والنهي عنه. وقد علّل الأمير منهجيته في تأليف هذه الرسالة بقوله: "وترتيب هذه الرسالة وضعا هو بحسب الترتيب عقلا؛ لأنّ إثبات الألوهية مرتّب على وجود العقل، وإثبات النبوة والرسالة مرتّب على إثبات الألوهية، وبيان ما يُحمد وما يُذمّ من الأقوال والأفعال والصفات مرتّب على إثبات النبوّة والرسالة".(الأمير محمد بن الأمير عبد القادر، 1903: 28)

ومما يلاحظ في هذه المنهجية أنّ الأمير لم يطرق موضوع الرسالة مباشرة، وإنما أرجأه إلى الباب الثالث. ولعل ذلك راجع إلى تهيئة الأمير عقلَ القارئِ غيرِ المسلم لتقبّل حقائق الإسلام، وإنكار أباطيل خصومه، فإذا ما وصل هذا القارئ إلى موضوع الرسالة انشرح صدره لما سيقوله الأمير، وربما وقع في نفسه الاقتناع.

وقد سلك الأمير في هذه الرسالة مسلكا إقناعيا ذا بُعد ديني وأخلاقي، غايته تصحيح فهم الآخر غير الملّي، وجعله يتخذ موقفا إيجابيا مما شرعه الإسلام في مسألة "وجوب الوفاء والأمر به، وترك الغدر والنهي عنه". وقد اعتمد الأمير في خطابه الإقناعي هذا على أساليب مختلفة؛ عقلية، ونقلية، وحسية، وبلاغية. وسنتخذ هذه الأساليب عناصر هذه الورقة البحثية، متّبعين فيها منهجا وصفيا تحليليا.

المنارة للاستشارات

النص:

1-الخطاب الإقناعي: المصطلح والمفهوم

يهدف الإقناع إلى التأثير في المتلقي فكريا ونفسيا بالحجج والبراهين، بغية تغيير موقفه الخاص من مسألة ما، وجعله يتبنّى موقفا جديدا منها. لذلك فقد لقي الخطاب الإقناعي عناية المفكرين والباحثين على اختلاف الأعصار والأمصار كالفلاسفة والبلاغيين واللغويين وغيرهم، وقد ربطوه أكثر بفنّ الخَطابة؛ فقد ذهب أرسطو إلى أن الإقناع والاقتناع يحدثان بثلاث وسائل؛ أولها أنّ الخطيب يقنع بالأخلاق إذا كان كلامه يُلقى على نحو يجعله خليقا بالثقة، لأننا نستشعر الثقة على درجة أكبر وباستعداد أوسع بأشخاص معتبرين في كل الأمور بوجه عام.. ثم إنّ الاقتناع يمكن أن يتم بواسطة السامعين إذا كانت الخطبة مثيرة لمشاعرهم، فأحكامنا حين نكون مسرورين ودودين ليست هي أحكامنا حين نكون مغمومين ومعادين. وأخيرا فإنّ الإقناع يحدث عن الكلام نفسه إذا أثبتنا حقيقة أو شبه حقيقة بواسطة حجج مقنعة مناسبة للحالة المطلوبة. (أرسطو، 1979م: 10– 11)

وقد تناول البلاغيون العرب قديما الخطاب الإقناعيضمن القاعدة البلاغية الشهيرة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"؛ (أنظر التعليق رقم 1)أي:أن يراعي المتكلم في خطابه أحوال السامعين، واختلاف مستوياتهم، ولا يتحقق الإقناع إلا إذا راعى المتكلم ذلك.كما جعل البلاغيون، وفي مقدمتهم الجاحظ، الخطاب الإقناعي معتمدا على

المنارة للاستشارات

الطاقات العقلية والمنطقية، ويقرُب معنى البلاغة حينئذ من معنى منطق. (بناني، محمد الصغير، 1994م: 236)

وكثيرا ما تربط النظريات المعاصرة الإقناع (PERSUASION) بالحِجاج (ARGUMENTATION)، وتجعل الإقناع من مستلزمات الحجاج، و"حدّ الحجاج أنه فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأنّ طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية، إنشاء موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة". (عبد الرحمن، طه، 2000م: 65)

على أنّ اللغوي الفرنسي "أزفالدديكروO. DUCROT" خالف – ابتداء من سنة 1973م– النظريات الحِجاجية الكلاسيكية التي ترى أنّ الحجاج ينتمي إلى البلاغة والمنطق، وذهب إلى أنّ الحجاج يكمن في اللغة ذاتها، "وتنطلق هذه النظرية من الفكرة الشائعة التي مؤدّاها (أننا نتكلم عامة بقصد التأثير)". (العزاوي، أبو بكر، 2006م: 8)

ومن هذا المنظور يُعرَّف الحجاج على أنه تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهويتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحُجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تُستنتج منها. ومثال ذلك جملة "أنا متعب، إذن أنا بحاجة إلى الراحة"، التي تتكون من حجة (التعب) ونتيجة (الراحة). ((العزاوي، أبو بكر، 2006م: 16)

المنارة للاستشارات

على أنّ قراءتنا لأساليب الخطاب الإقناعي عند الأمير عبد القادر ستكون من المنظور الكلاسيكي، الذي يقوم على الوسائل البرهانية (عقلية، نقلية، حسّية) والوسائل البلاغية (فنون القول؛ معانٍ وبيان وبديع)، نظرا لما لهذه الوسائلالإقناعيةمن حضور معتبر في الكتاب الذي بين أيدينا. (أنظر التعليق رقم 2)

2-أساليب الخطاب الإقناعي في كتاب "المقراض الحاد"

1.2. الأساليب العقلية

افتتح الأمير عبد القادر رسالته بالإقناع العقلي والمنطقي، ليدفع بالمتلقي دفعا لطيفا ظريفا نحو إعمال عقله، وتسريح فكره في بعض المسائل الدينية التي أخذ عنها غير المسلمين مفاهيم خاطئة. وقد أخذ الإقناع العقلي عند الأمير عدة صور؛ منها ردّ الأقيسة الفاسدةالتي يعتقدها غير المسلم، وتوجيهُها توجيها منطقيا مدعَّما بأمثلة من الواقع، من ذلك قوله عما اصطلح عليه بـ"فساد مقايس الغرور": "فالذين غرّتهم الدنيا واشتغلوا بها قالوا: النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد والآخرة نسيئة، فإذا الدنيا خير فلا بد من إيثارها، وقالوا: اليقين خير من الشك، وإذا الدنيا يقين، والآخرة شك فلا نترك اليقين، وهذه أقيسة فاسدة، وبيان فسادها بالبرهان". وقد ردّ الأمير على القياس الأول بقوله: "إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار فهو خير، وإن كان أقل منه فالنسيئة خير، فإنّ هذا المغرور يبذل في تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة، ولا يقول النقد خير من النسيئة.. والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون

المنارة للاستشارات

في الأسفار نقدا لأجل الراحة والربح النسيئة". (الأمير عبد القادر، 1989م: 35)

كما ردّ على القياس الثاني بقوله: هذا القياس أكثر فسادا من الأول؛ لأنّ اليقين إنما يكون خيرا من الشك إذا كان مثله؛ فالمريض يشرب الدواء البشع الكريه، وهو من الشفاء على شك، ومن مرارة الدواء على يقين. (الأمير عبد القادر، 1989م: 36)

ومن صور الإقناع العقلي عند الأمير تفنيده لزعم بعض النصارى، القائل بأنّ المسلمين لا يعتقدون تأثير الأسباب في الأشياء، والحقيقة خلاف ذلك، قال: "بلغني أنّ بعض النصارى قال: المسلمون لا يعتبرون الأسباب، نعم لا نعتبر تأثيرها بطبعها ولا بقوتها مجرّدة، وأما اعتبارها على وجه آخر فهي معتبرة. قال إمام الحرمين: إنّ نسبة الأثر إلى المؤثر القريب لا تنافي كون ذلك الأثر منسوب إلى مؤثر آخر بعيد ثم إلى أبعد إلى أن ينتهي إلى مسبّب الأسباب وفاعل الكل، بمعنى أنه تعالى هو الذي وضع الأسباب المؤدية إلى دخول هذه الأفعال في الموجود". (الأمير عبد القادر، 1989م: 44)

وقد اتّسع الإقناع العقلي عند الأمير ليشمل الاستدلال بالقواعد الأصولية،حيث سلك في خطابه الإقناعي مسلك الأصوليين في إثبات الحكم الشرعي في بعض مسائل القتال، كحمل المطلق على المقيّد، والعام على الخاص، مما يدل على فقه الرجل في التعامل مع النصوص الشرعية، في ضوء القواعد الأصولية، من ذلك ما أورده عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: "دعوا الحبشة ما وَدَعوكم، رواه أبو داود عن ابن عمر، قال

المنارة للاستشارات

شراح الحديث: وذلك أن الحبشة ضعيفة لا يُخشى منها ضرر على الإسلام، فأمر عليه السلام بالكف عن قتالهم للأمن من شرهم، به قال الخطابي: والجمع بين هذا وبين قوله تعالى: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) إذ الآية مطلقة والحديث مقيّد، فيُحمل المطلق على المقيّد ويجعل الحديث مخصّصا لعموم الآية". (الأمير عبد القادر، 1989م: 198 - 199)

2.2. الأساليب النقلية

لا نجد تعارضا بين العقل والنقل في الخطاب الإقناعي عند الأمير، بل سارت الأساليب العقلية مع الأساليب النقلية على منهج مطّرد لا عوج فيه. وقد تنوعت صنوف النقل في خطاب الأمير بين القرآن الكريم، والحديث الشريف، وأحكام الفقه، ونصوص من الكتاب المقدس، وكلام العرب..

أ- القرآن الكريم:

لقد ساق الأمير آيات قرآنية لبيان ما ورد في الشرع من وجوب الوفاء بالعهد والأمر به، وترك الغدر والنهي عنه، منها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)، ومما قاله الأمير في هذا الشأن: "معنى الآية: الأمر بالوفاء وهو القيام بمقتضى العهد، والعقود هي العهود الموثّقة، أمر الله عباده المؤمنين بالوفاء فيما يعقدون". (الأمير عبد القادر، 1989م: 201) ومنها قوله تعالى: (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا)، ومنها قوله تعالى في ذمّ الذين ينقضون العهود: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي

المنارة للاستشارات

كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) قال: "معنى الآية ذمّ من لا يفي بالعهد. وقوله (وهم لا يتّقون) أي لا يخافون سبّة الغدر، ويبالون بما فيه من العار والنار". (الأمير عبد القادر، 1989م: 202) ومنها قوله تعالى: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)، "قال المفسرون: معنى الآية أمر الله نبيه إذا عاهد قوما من العدو وظهرت من العدو علامة نقض العهد أن يطرح لهم العهد ويخبرهم إخبارا مكشوفا أنه نقض العهد الذي بينه وبينهم، ولا يعاجلهم بالحرب وهم على توهّم بقاء العهد، حتى يُعلِمهم ويأخذوا حذرهم ويستعدوا، ومن لم يفعل هذا يكون خائنا في العهد، والله لا يحب الخائنين في العهود". (الأمير عبد القادر، 1989م: 203)ونستشف من الآية الكريمة مدى رحمة الإسلام في تعاملهمع المخالفين الذين تظهر منهم علامةنقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، فكيف في تعامله مع المخالفين الذين يلتزمون العهد!

كما ساق الأمير شواهد قرآنية تأمر بالعدل مع المخالفين، منها قوله تعالى: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّاتَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) قال البيضاوي: "المعنى لايحملنّكم شدة بغضكم للكفارعلى ترك العدل فيهم، فتعدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كمثله وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد، اعدلوا هو أقرب للتقوى، صرّح لهم الأمر بالعدل وبيّن أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجور وبيّن أنه مقتضى الهوى". (الأمير عبد القادر، 1989م: 205)

المنارة للاستشارات

ب-الأحاديث الشريفة:

أورد الأمير في خطابه الإقناعي أحاديث شريفة تحثّ على الوفاء بالعهد، وتنهى عن الغدر، منها ما هو نبوي، ومنها ما هو قدسي، من ذلك قوله -عليه الصلاة والسلام- في الحديث القدسي حاكيا عن ربه: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمَه خصمتُه؛ رجل أُعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره". رواه البخاري وابن ماجة عن أبي هريرة. قال بعض شراح الحديث: إنما خصّ هؤلاء الثلاثة مع أنه تعالى خصم كل ظالم إشارة للتغليظ عليهم وإعلاما بعظيم قبيح فعلهم، وإنّ هذه الخصال كبائر جرائم وخطايا عظائم، ومعنى خصمتُه غلبتُه لأنّ الله تعالى لا يغلبه أحد. ومعنى أُعطي: أعطي الأمان باسمي أو بذكري أو بما شرعته من الدين، كأن يقول عليك عهد الله أو ذمته، ومعنى غدر: نقض العهد الذي عاهده عليه لأنه جعل الله كفيلا له فيما لزمه من وفاء ما أعطي، والكفيل خصم المكفول به للمكفول عنه". (الأمير عبد القادر، 1989م: 205 - 206)

ومن ذلك قوله -عليه الصلاة والسلام- في الحديث النبوي: "ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: ملك كذاب، وشيخ زانٍ، وعائل مستكبر". رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة. قال القونوي: سِرُّ عدّ الملك الكذاب منهم أنّ الكذب صنفان ذاتي وصفاتي، فالصفاتي محصور في موجبين الرغبة والرهبة، والملك لا يخاف أحدا فيصانعه ولا يحتاج إلى أحد، فإذا كان الملك كذابا فلا موجب

المنارة للاستشارات

له إلا لؤم الطبع، فهو وصف ذاتي له والأوصاف الذاتية تستلزم نتائج تناسبها". (الأمير عبد القادر، 1989م: 206)

ومن ذلك قوله -عليه الصلاة والسلام- في الحديث النبوي: "ثلاث ليس لأحد فيهن رخصة: برّ الوالدين مسلمين كانا أو كافرين، وأداء الأمانة لمسلم كان أو كافر، والوفاء بالعهد لمسلم كان أو كافر. رواه البيهقي عن علي بن أبي طالب". (الأمير عبد القادر، 1989م: 207)

ج-أحكام الفقه:

لقد استدلّ الأمير بأحكام الفقه الإسلامي في بعض المسائل المتعلقة بوجوب الوفاء بالعهد والأمر به، وترك الغدر والنهي عنه، منها أنّ الإسلام ليس دين عنف أو قتال من أجل القتال، وإنما يكون القتال لدفع الضرر عن الإسلام، أما إذا انتفى الضرر فلا قتال،والشاهد عند الأمير في هذه المسألة هو الذمّي الذي يدفع الجزية لا يُقتل، ويُترك على دينه، قال: "لو كان القتال لغير دفع الضرر وكان لأجل المخالفة في الدين، لكانت الجزية لا تُقبل من الحربي إذا طاع بها مع بقائه على دينه، مع أنه إذا طاع بها على شروطها يحرم قتاله ولا تجوز إذايته من غير خلاف بين المسلمين". (الأمير عبد القادر، 1989م: 199)

وقد ذكر الأمير أنّ القتال لم يكن لأجل الدخول في الدين، فلو كان القتال لأجل الدخول في الدين لكانت المرأة تُقتل مع أنها لا تُقتل وتُترك على دينها، قال شراح خليل كالشيخ إبراهيم: لأنّ الأصل عدم إتلاف النفوس، وإنما أبيح من القتال ما يمنع المفسدة. ومن لا يقاتل عادة

المنارة للاستشارات

لا يُقتل لعدم ضرره الآن. وكذلك الصبيان المطيعون للقتال والزمناء والضعفاء والفلاحون وأهل الصنائع والقسيسون والرهبان، ويعطى لهم ما يكفيهم في عيشهم ولباسهم من أموال المحاربين. فإن لم تكن فيجب على المسلمين أن يعطوهم ما يكفيهم. (الأمير عبد القادر، 1989م: 199 – 200)

وقد وضّح الأمير في رسالته مقصدية الجهاد والقتال في الإسلام، التي تقوم على دفع ضرر العدو، وعلى رفع راية الإسلام: "فتبيّن من هذه الأمور التي ذكرناها والنصوص التي جلبناها أنه ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العباد ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال، وإنما المقصود به دفع ضرر الأمم المخالفة ورفع كلمة الإسلام بالقتال أو بغيره، ولو توهم حصول ذلك من غير قتال ولا دفع ما وجب القتال لأن الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما". (الأمير عبد القادر، 1989م: 200)

وقدتوسّع الأمير في عرض أحكام فقهية خاصة بالأسير المسلم عند غير المسلمين، "منها أنّ المسلم الأسير عند العدو إذا أمّنوه على نفسه يحرم عليه الهروب. قال الشيخ خليل: وحرُم خيانة أسير ائتُمن طائعا ولو على نفسه... قال اللّخمي: لئلا يقول العدو: المسلمون لا يوفون بالعهد". (الأمير عبد القادر، 1989م: 223 – 224)

ويتبيّن من الأحكام الفقهية التي ساقها الأمير في رسالته، والتي تحثّ على الوفاء بالعهد، وتنهى عن الغدر، أنّ الإسلام دين سلام، يدعو الناس إليه بالحرف قبل السيف، وبالرفق قبل الشدّة.. كما يتبين من ذلك مدى اطلاع الأمير على أحكام الشريعة الإسلامية في التعامل مع غير المسلمين في حالي السّلم والحرب، كالمعاهدات، والتعامل مع الأسرى..، فضلا عن تعليله لتلك الأحكام،

المنارة للاستشارات

وذكر المقاصد المرجوة منها، مما يدل على فقه الرجل لروح الدين الإسلامي الحنيف، وتعاليمه السمحة.

هذا، ومن يتتبع سيرة الأمير يجده قد مارس بالفعل تعاليم الإسلام أثناء تعامله مع الأسرى غير المسلمين، بما ترك أثرا طيبا في نفوسهم؛ من ذلك موقف مجموعة من الجنود الفرنسيين الذين أسرهم الأمير في إحدى المعارك، فأكرمهم واعتنى بهم عناية خاصة ثم أرجعهم إلى فيلقهم الأصلي، فما كان منهم إلا أن حموه من القتل بنفوسهم في معركة "خنق النّطاح" بعد أن قُتل حصانُه وسقط هو على الأرض، فهرّبوه وأنجوه، ثم وقوفه إلى جانب المسيحيين وحمايتهم في قصره من مذابح الفتنة التي وقعت في الشام بين المسلمين والمسيحيين لدليل آخر على تجذّر هذه الخصال في شخصية عبد القادر. (بشير بويجرة، محمد، 2009م: 45)، (أنظر التعليق رقم 3)

فالأمير -كما تقدّم- كان مُقنِعا بأخلاقه قبل أن يكون مقنعا بكلامه، وبذلك يكون الأمير قد حقق الشرطالإقناعي الأول والأساس؛ وهو الإقناع الأخلاقي الذي من شأنه أن يضفي على الخطاب صفة المصداقية، ليحظى -عندئذ- بالمقبولية من لدن المتلقي.

د-نصوص من الكتاب المقدس

لم يكتف الأمير في خطابه الإقناعيبالنقول الإسلامية؛ من قرآن كريم وحديث شريف.. وإنّما عضدها ببعض ما ورد في "الكتب السماوية" الأخرى كالتوراة والإنجيل، في سياق إثبات نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- بخاصة؛ لأنّ الأمير في موقف خطابي مع الآخر غير

المنارة للاستشارات

الملّي، ومن بلاغة الإقناع وتمامه الاستدلال بما يعتقده ذلك الآخر. ففي التوراة "أنّ الله تعالى قال لموسى: وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء آمرهم به، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنتقم من ذلك. (انتهى النص) ودلالة هذا على رسالة محمد ظاهرة، فإنّ أولاد إسماعيل إخوة بني إسحاق، وقد انتقم الله من اليهود الذين لم يسمعوا كلامه كبني قريظة والنضير وبني قينقاع وغيرهم". (الأمير عبد القادر، 1989م: 177)

وفي إنجيل يوحنّا ورد: وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلّمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عند نفسه بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي.. وكذلك في القرآن وصف محمدا بقوله: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى). (الأمير عبد القادر، 1989م: 180)

وتدل الشواهد "الكتابية" التي استدل بها الأمير في خطابه الإقناعي على أنّ هذه الرسالة هي "حصيلة عمر طويل تقضى في الاستقصاء، والبحث، والتنقيب، والتمحيص، لكل ما رُوي ونقل ونشر عن الديانات والرسل والأنبياء والكتب السماوية". (صالح السيد، فؤاد، 1985: 96)

كما تدلّ تلك الشواهد على مدى ثقافة الأمير الموسوعية التي كان يتمتع بها في عصر عُرف بـ"عصر الموسوعيين"؛ فثقافته العقلية (كالمنطق والحساب والفلك والطبيعيات..)لا تقلّ شأنا عن ثقافته النقلية (كالقرآن والحديث والفقه والأدب والديانات..)، هذه الثقافة التي ينبغي أن تتوافر

المنارة للاستشارات

لدى كل داعية مسلم ينتصب للحِجاج عن الإسلام، في مرحلة اتسعت فيها دائرة النقاش مع غير المسلمين في شتى أنحاء العالم.

هـ-كلام العرب:

لم يغفل الأمير الاستشهاد بكلام العرب في الوفاء بالعهد، والنهي عن الغدر، من أمثال وحكم وشعر وغير ذلك، من ذلك قولهم: "أربعة من علامات اللّؤم: استعمال الغدر، وإفشاء السرّ، وإساءة الجوار، وتجنّب الأخبار. وقال بعضهم: من النفاق غشّ الصديق، ونقض العهود والمواثيق". (الأمير عبد القادر، 1989م: 245)

وقولهم أيضا:

لا تقولَنَّ إذا ما لم تُـــــرِدْ ** أن تُتِمَّ الوعدَ في شيء نَعَـــــمْ
فــإذا قلتَ نَعَـم فاصْبِرْ لهـا** بوفاء العَهْدِ إنّ الخُلْفَ ذَمْ (الأمير عبد القادر، 1989م: 253)

ولعلّ مردّ تخصيص الأمير حيزا كبيرا من رسالته للحديث عن شيم الوفاء بالعهد وصدق الوعد وأخلاقيات الحرب وحسن معاملة الأسرى وكلمة الشرف، إلى كونه رجلا مجاهدا مقاتلا ذاق مرارة الأسر وذُلّه والخيانة والغدر، فلا ينبئك في مثل هذا إلا خبير تجرّع مرارة الظلم وألم الوحشة والغربة، ولكنه شهم عفو سمح كريم، لأنّ دينه يدعو إلى دفع السيئة بالحسنة أسوة بجده -عليه الصلاة والسلام-. (بن السبع، عبد الرزاق، 2000م: 211) لذلك فليس عجبا أن تشغل خصال الأمير هذه، عقول محبّيه من المسلمين وغير المسلمين على سواء. (أنظر التعليق رقم 4)

المنارة للاستشارات

3.2. الأساليب الحسّية

تعدّ الأساليب الحسية من أكثر الأساليب تأثيرا في المتلقي، لسهولة إدراكها بالحواس، لذلك فقد كان للأساليب الحسية حظ معتبر في خطاب الأميرالإقناعي، لاسيما في الباب الأول الذي تحدّث فيه عن "إثبات الألوهية وبيان الطريق إلى معرفة الله تعالى". وقد تناول الأمير في هذا الباب الأرض وعجائب الخلق؛ فتحدّث عن الأنهار والبحار والجبال والحيوان والنبات. ثم انتقل إلى الحديث عن آيات الله في السماء؛ فذكر الأفلاك والشمس والقمر ومنافعهما. ثم أنهى هذا الباب بحديثه عن التفكر في خلق الإنسان؛ فذكر أطوار خلقه ونفخ الرّوح فيه، وتحدّث عن الحواس الخمس الظاهرة والباطنة.

وقد استطاع الأمير في مؤلَّفه هذا "أن يتناول هذه الموضوعات بأسلوب موسوعي مكّنه من الحديث عن العقل بلغة الفلاسفة والمناطقة، كما مكّنه من الحديث عن الأفلاك والأجرام السماوية بلغة الفلكيين والجغرافيين، وهو نفسه الذي مكّنه من التعبير بدقة عن الإنسان وأعضائه وأجهزته بلغة الأطباء وعلماء الطبيعة، وقل مثل ذلك في حديثه عن النبوّة والرسل والأخلاق والإسلام". (بن السبع، عبد الرزاق، 2000م: 346)

ومن الأساليب الحسية الإقناعية التي استخدمها الأمير في الباب الأول المتقدّم ذكره قوله: "وأنه تعالى جعل البحر المحيط بالأرض مالح الطعم مرّا وفي هذا حكمة عظيمة لصحة الهوى، إذ لو كان حلوا لأنتن الجوّ وفسد الهوى بسبب ما يموت فيه من الحيوانات. فكان يؤدي إلى تفاني بني آدم وكفّ تعالى شرّه أن يطغى على العباد، وسخّره لهم، يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها إلى الأقاليم العالية بالتجارات وغيرها". (الأمير عبد القادر، 1989م: 54)

المنارة للاستشارات

ويبدو أنّ الغرض من استخدام الأساليب الحسية هو توجيه عقل الآخر غير الملّي نحو التأمل في ملكوت الله، قصد الوقوف على عظمة الخالق، وعلى تفرّده في صنعه. وقد اتبع الأمير بأسلوبه هذا المنهج القرآني حينما تحدّث عن خلق السماوات والأرض والإنسان في غير موضع.. (أنظر التعليق رقم 5) وهو منهج مؤسسللتفكير العلمي من خلال الآيات التي تحثّ على النظر والتفكّر والاستدلال..

4.2. الأساليب البلاغية

يعتمد الخطاب الإقناعي، فيما يعتمد عليه، على أساليب فنية بلاغية كالتشبيه والقصْر والتقسيم والمقابلة..، لأغراض أدبية مختلفة؛ منها التأثير في المتلقي، وتجلية المعاني المجرّدة في صور فنية مقنِعة، وتوضيح المعنى أو توكيده أو تخصيصه..لذلك لم يخل أسلوب الأمير من هذه الوسائل أو الأساليب، فمن أمثلة التشبيه قوله: "نور العقل يشبه نور النار من وجهين وهما عيب فيه، أحدهما: أنّ نور النار ممزوج بدخان يسوّد الثوب ويجفّف الدماغ، فكذلك نور العقل ممزوج بدخان الشبهات. والثاني: أنّ نور السراج ينطفئ بأدنى ريح، فكذلك نور العقل ينطفئ بأدنى شبهة، وهنا يحصل التفاضل والتفاوت بين العقول". (الأمير عبد القادر، 1989م: 18) ولا يخفى كيف تمّ تجلية معنى "نور العقل" وهو معنى مجرّد في صورة محسوسة "نور النار".

ومن أمثلة أسلوب التقسيم -الذي هو استيفاء أقسام الشيء- قوله: "وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف؛ الأولى الفلاحون والرعاة والمحترفون، الثانية الجندية الحماة لهم بالسيوف، الثالثة

المنارة للاستشارات

المترددة بين الطائفتين في الأخذ والعطاء، وهم العمال والجباة وأمثالهم". (الأمير عبد القادر، 1989م: 29) فأهل الصناعات -بحسب عصر الأمير- لا يخرجون عن الطوائف الثلاث المذكورة.

وقد كان لأسلوب القصر بطرقه المختلفة دور في تخصيص المعنى عند الأمير، فبطريقة "لا النافية وإلا" يخصّص الأمير أهلَ العلم عن غيرهم من الناس بالاشتغال بما ينظّم حياة الناس كالقانون وغيره، قال: "فهذه أمور سياسية لا بدّ منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من التمييز والعلم والهداية". (الأمير عبد القادر، 1989م: 28) وبطريقة "إنّما" يبيّن الأمير ترتيب القياس الذي نظمه المغترون بحب الله، حينما قاسوا المستقبل على الماضي؛ أي ما دام الله أحسن إليهم في الدنيا فيترتب عليه أن يُحسن إليهم في الآخرة! قال: "وإنما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب". (الأمير عبد القادر، 1989م: 38)

كما كان للمقابلة دور في تبيان الشيء وضده، فبضدّها تتميّز الأشياء، كالمقابلة بين مرض النفوس وصحتها: "وإنّ نقص النفوس الناطقة ومرضها شيئان: الإعراض عن الحق والإقبال على الخلق، وصحتها شيئان: الإقبال على الحق والإعراض عن الخلق". (الأمير عبد القادر، 1989م: 162)

وبالإضافة إلى الأساليب البلاغية التي وظّفها الأمير في خطابه الإقناعي، فإنه كان يستعمل أحيانا في هذا الخطابطريقة حوارية بينه وبين المتلقي، من خلال بعض الألفاظ والعبارات الدالة على ذلك، مثل:

المنارة للاستشارات

"اِعلمْ أنّ.."، "إذا عرفتَ هذا فنقول.."، "فإنْ قيل إنّكم قلتم.. قلنا..". وليس يخفى أنّالطريقة الحوارية كانتمعروفة عند كتابنا المسلمين القدامى، الذين كانوا يفترضون وجود سؤال المتلقي ابتداءً، فيحاورونه على سبيل الافتراض.

الخاتمة:

لقد تبيّن من خلال ما تقدّم، أنّ الأمير عبد القادر قد صاغ خطابه الإقناعي في كتابه "المقراض الحادّ" وفق أساليب مختلفة؛ عقلية، ونقلية، وحسّية، وبلاغية، مما يدل على عمق معرفي، ووعي في الكتابة لدى الأمير.

وتزداد أهمية هذا العمق المعرفي، وهذا الوعي في الكتابة، عندما يتعلق الأمر بمخاطبة الآخر غير الملّي، ومحاولة إقناعه -إقناعا أخلاقيا قبل أن يكون كلاميا- ليتخذ موقفا إيجابيا مما شرعه الإسلام في مسألة "الوفاء بالعهد، والنهي عن الغدر"، ومن كل المسائل الشرعية الأخرى التي يأخذ عنها غير المسلمين صورا مغلوطة، وفهوما خاطئة؛ إما لقصورهم في الفهم، أو لأنهم أخذوا تلك المسائل من مصادر غير موثوقة.. ولا ضير -عندئذ- أن يكون الخطاب الإقناعي عند الأمير نبراسا للداعية المسلم الواعي الذي يريد أن يوصل خطابه إلى أبعد نقطة في أرجاء المعمورة.

المنارة للاستشارات

التوثيق:

التعليقات:

1. يرى البلاغيون أنّ بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال، والحال هو الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يميز كلامه بميزة هي مقتضى الحال، فإنكارُ المخاطَب للمعنى حالٌ يقضي أن تؤكّد له الجملة فتقول: إنّ محمدا ناجحٌ، وذلك التأكيد هو مقتضى الحال. وبلاغة المتكلم مَلَكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ في أي معنى قصد.. فمسّت الحاجة إلى "علم البيان" لتحقق سلامة اللفظ، وإلى "علم المعاني" لملاءمة اللفظ لمقتضى الحال، ثمّ كان علم البديع -الذي يُعرف به وجوه تحسين الكلام- تابعا لهما. للتوسع في الموضوع يُنظر ما كتبه (الشايب، أحمد، 1991: 19)

2. يطلق الأسلوب في اللغة على الطريق والوجه والمذهب والفنّ.. أما في الاصطلاح العامّ فهو طريقة التفكير والتصوير والتعبير.. أما في الاصطلاح النقدي فهو طريقة الكتابة، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير. أنظر: (الشايب، أحمد، 1991: 44)

3. أنظر أيضا ما كتبه (سعد الله، أبو القاسم، 2007: 1/ 132)

4. أنظر مثلا ما كتبه عنه معاصره: (تشرشل، شارل هنري، 1974م)

المنارة للاستشارات

5. من ذلك قوله تعالى:"الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" (آل عمران:191)، وقوله: "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ" (عبس:24)، وقوله: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" (الغاشية:20،17)..

قائمة المراجع:

1- سعد الله، أبو القاسم،(2007م)، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزائر: دار البصائر

2- العزاوي أبو بكر،(1426هـ/ 2006م)، اللّغة والحِجاج، ط1، الدار البيضاء: العمدة في الطبع

3- الشايب، أحمد،(1411هـ/ 1991م)،الأسلوب،دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، ط8، القاهرة: مكتبة النهضة

4-أرسطو،(1979م) الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن بدوي، الكويت: وكالة المطبوعات، بيروت: دار القلم

5-الأمير عبد القادر،(1989م)، المقراض الحادّ لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، ط1 الجزائر:الطاسيلي للنشر والتوزيع

6-الأمير محمد بن الأمير عبد القادر (1903م)، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الاسكندرية: المطبعة التجارية

7- تشرشل، شارل هنري،(1974م)، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله،تونس: الدار التونسية للنشر

8- عبد الرحمن، طه،(2000م)، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي

المنارة للاستشارات

9- بن السبع، عبد الرزاق،(2000م)، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
10- صالح السيد، فؤاد،(1985م)، الأمير عبد القادر الجزائري، متصوفا وشاعرا، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب
11- بناني، محمد الصغير،(1994م)، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، من خلال البيان والتبيين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية
12- بشير بويجرة، محمد (2009م)، الأمير عبد القادر، رائد الشعر العربي الحديث، ط1، وهران: دار القدس العربي

المنارة للاستشارات

المنارة للاستشارات